الصباح الإسلامية
09
إعداد : ياسر السيد
العدد 2261 - السنة الثامنة
الاربعاء 25 ذو القعدة 1436 - الموافق 9 سبتمبر 2015
Wednesday 9 September 2015 - No.2261 - 8th Year

لم يعرف لدى علماء المسلمين القدامى ويجب على الجدد دراسته وتحديد معناه وبيان أحكامه

حوار الأديان .. من منظور إسلامي

إن الحوار بين الأديان مصطلح معاصر متداول على الساحة العالمية والمحلية، منطو على الكثير من الشك والغموض والإبهام من ناحية مدلوله وأهدافه(1). وذلك أن فكرة الحوار هذه جاءت من الغرب وتداولت وشاعت حتى تعقد لها المؤتمرات على الصعيدين الدولي والمحلي، ويدعى إليها علماء الإسلام.

بما أن الحوار بين الأديان مصطلح معاصر لم يعرف لدى علماء المسلمين القدامى، يجب على العلماء أن يقوموا بدراسته وتحديد معناه لغة واصطلاحا، وبيان انواعه واحكامها في ضوء الكتاب والسنة.

ولا ينبغي لنا ان ننفي فكرة الحوار لمجرد انها فكرة جاءت من الغرب بل يجب علينا ان نولي لها عنايتنا، فإن كان من انواع الحوار ما يتفق و مبادئ الإسلام ونوابته فنقبله وننشره وندعو إليه، وإن كان منها ما يعارض الإسلام فنرفضه ونجانبه وننبه الآخرين على فساده وبطلانه.

الحوار لغة:

معنى الحوار في اللغة: مراجعة الكلام وتداوله، والمحاورة: المجادلة، والتحاور: التجاوب، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، ومنه قولهم: لم يحر جوابا أي: لم يرد ولم يرجع الجواب؛ فمرجع الحوار للتخاطب والكلام المتبادل بين اثنين فاكثر(2).

والمعنى اللغوي العام للحوار هو مراجعة الكلام والحديث بين طرفين، فإذا اضيف إلى الأديان اصبح معناه ما يدور من الكلام والحديث والجدال والمناقشة بين اتباع الأديان، وهذا يدل على ان معناه عام متعدد الأشكال والصور والأنواع بحسب نوعية الكلام والمناقشة.

الحوار اصطلاحا:

أما مدلوله الاصطلاحي فهو مجمل غامض، لأنه يستعمل باكثر من معنى، فهو يحتاج إلى بيان انواعه والفروق بينها. فعبارة «الحوار بين الأديان» تشمل معنى صحيحا ومعنى باطلا يحتاج كل منهما إلى بيان وتوضيح. سانتاول الحوار بمعانيه المتداولة بالبيان والتحليل، فإن الإحاطة بجميع انواعه لايسعها هذا البحث الموجز. ومعانيها المتداولة هي:

1 -حوار الدعوة

2 -حوار التعايش بمعنيين:

أ- المعنى المفهوم من الكلمة.

ب- المعنى المعاصر

3 -حوار التقارب

اولا تعريف الحوار بالمفهوم الإسلامي: وتاصيله الشرعي، ومنهجه، ثم الكر انواع الحوار بمعانيها المتداولة.

الحوار بالمفهوم الإسلامي:

إن الحوار بين الأديان - بالمفهوم الإسلامي الذي سنوضحه - مطلب شرعي لازم لتوضيح الصورة الصحيحة لعقائد الإسلام وآدابه واحكامه، وهو وسيلة من وسائل دعوة اتباع الأديان إلى الإسلام، والدعوة إلى الله تعالى موجهة لكل الناس، وإقناعهم بالحق هدف شرعي مطلوب.

وقد قام بالحوار بين الأديان ب - معناه الشرعي المطلوب - الأنبياءُ الكرام مع أقوامهم بطرق مختلفة وأساليب متعددة، والمسلمون هم احرى الناس اتباعا للمنهج النبوي للدعوة، وأقوامهم حجة وبيانا، لأن دينهم دين رباني موافق لعقل الإنسان ونفسه.(3)

التاصيل الشرعي في الحوار بين الأديان:

اما الأصل الشرعي في الحوار مع أهل الأديان، فهي الآيات التي وردت فيها دعوة الأنبياء والرسل لأقوامهم، وقد كان أقوامهم على أديان مختلفة ومتباينة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: 33]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: 18]. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: 14].

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: 36] وكل نبي يبعثه الله لقوم يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

فإذا تتبعنا الآيات والأحاديث المبينة لحوارات الأنبياء والرسل مع أقوامهم نجد أنها دعوة إلى الله، وبيان للحق، وكشف للباطل، وبيان لضرره في الدنيا والآخرة.

وقد قام المنهج الشرعي في حوار الأديان على أربع مراحل، ومع ذلك فهي كلها تلتقي في الدعوة العامة للإسلام، وهي:

المرحلة الأولى: الدعوة.

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64] هذه الآية الكريمة تعتبر نصا في موضوع الحوار، ولا يمكن أن يتجاوزها من اراد معرفة حكم الله تعالى في الحوار بين الأديان، وقد بين مدلول الحوار في هذه الآية رسول الله -ﷺ- في خطابه المرسل إلى هرقل، وهو يتضمن الدعوة إلى الإسلام لا التقريب بين دينهم ودين الإسلام، يقول صلى الله عليه وسلم: (من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني ادعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين)، ثم قرا الآية السابقة(4). والآية السابقة توضح موضوع الحوار وتحدده، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، وترك الشرك، ولهذا فسر الصحابة ومن بعدهم (الكلمة السواء) في الآية بـ (لا إله إلا الله).

وتتضمن هذه الدعوة الأمور الآتية:

1 -الدعوة إلى التوحيد وإبطال الشرك.

2 -الدعوة إلى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم والتزام دينه.

3 -الدعوة إلى ترك الغلو والقول على الله بغير الحق.

4 -الدعوة للإيمان بالقرآن.

المرحلة الثانية: المجادلة.

المناقشة والمجادلة تتضمن أمرين:

1 -إقامة البرهان والدليل القاطع على صدق الحق وصحته.

2 -والرد الصحيح على الشبهات المانعة من قبول الحق.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل: 125] امر الله تعالى بمجادلة أهل الكتاب بالأسلوب الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:46]. وهذه الآية تدل على أن أهل الكتاب وأصحاب الأديان نوعان:

أحدهما: من يريد الحق ويسعى إليه: وهذا يُجادل ويُناقش بالتي هي أحسن، وهي: «الأدلة العقلية المقنعة، مثل الاستدلال بالآيات البينات(5).

الثاني: المعاند المحارب المعرض عن الحق: وهذا لا يُجادل بل يُقاتل في سبيل الله(6)، ولا شك أن مناقشة أهل الأديان لا تكون بالنصوص الشرعية لأنه لا يؤمن بها من حيث المبدأ بل تكون بالأدلة العقلية الصحيحة، والقرآن الكريم يتضمن الأدلة العقلية على قضايا العقائد بوضوح تام، فقد جاء بالحق في المسائل والدلائل.

المرحلة الثالثة: المباهلة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]. قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: «نتداعى باللعن، يقال عليه بَهْلة الله وبَهْلته أي لعنته»(7). والابتهال هنا أي: التضرع في الدعاء باللعن(8).

وهذه المرحلة في الحوار مع أهل الأديان إنما تكون لمن يجادل بالباطل، أو اتضح له الحق وقامت عليه الحجة واعرض عنها، يقول ابن القيم رحمه الله في فقه قصة وفد نجران: «ومنها: أن الستة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك»(9).

وهذه درجة متقدمة في حوار أهل الكتاب ولها فائدة عظيمة من جهتين: -1 إظهار التحدي، والثقة التامة بأن الداعي إلى المباهلة على الحق. -2 تخويف المعاند بتعريضه للعنة الله تعالى فربما كان ذلك سببًا في رجوعه(10).

المرحلة الرابعة: المفاصلة والبراءة.

المفاصلة والبراءة بين المسلمين والكفار بكل أصنافهم ثابتة قبل الحوار، ولكن المراد بها هنا نوعا خاصا هو بمنزلة البيان الختامي للحوار الذي يتولى ويعرض فيه المحاور عن إلحق كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: من الآية 64)، ويقول تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:137]. وبهذا يتبين انه بعد الدعوة والبيان التام، وكشف الشبهة، وإقامة الحجة فإن المحاور يتحدد موقفه: إما الإسلام، وإما التولي، «وحينئذ فلابد من الحجة والإعلان والإشهاد بعد المحاورات والمفاوضات المنتهية بالتولي والإعراض: بأنا مسلمون، ومن سوانا ليسوا كذلك»(11). وهذا يدل على أنه لا تترك الأمور بدون توضيح وبيان.

قد تبين مما ذكرنا من المنهج الشرعي للحوار مع أصحاب الأديان أن الأساس في الحوار هو الدعوة وإقامة الأدلة على صحة دين الإسلام، ووجوب الانقياد له ونبذ الأديان المحرفة، وبيان ما في دينهم المحرف من الباطل بلغة علمية، ومنهجية سليمة، وهذه حقيقة شرعية واضحة لمن استقرا نصوص الكتاب والسنة، وطالع اخبار الأنبياء وعرف طبيعة رسالتهم.

أنواع الحوار بالمعاني المعاصرة المتداولة:

وأما الحوار بمعانيه المعاصرة المتداولة، فهي أنواع:

1 -حوار الدعوة :

إن الحوار بهذا المعنى ليس متداولا معروفا، غيرانه علينا نحن المسلمين أن نعطي الكلمة(الحوار) المفهوم الإسلامي المنشود الذي ذكرته فيما قبل. وقد سبق أن قلت أن المقصود به في -المفهوم الإسلامي-: الحوار مع اتباع الأديان الأخرى لبيان صحة هذا الدين، وأنه ناسخ لكل الأديان السابقة، وإيضاح صحة نبوة محمد ومحاسن الإسلام العظيمة، وبيان ما هم عليه من الباطل المنحرف، وهذا الحوار مطلوب شرعا تدل عليه كل الآيات والأحاديث الدالة على فضيلة الدعوة إلى الله وبيان الحق ورد الباطل. وهذا النوع من الحوار قد ذكرته مفصلا.

2 -حوار التعايش:

أ- المعنى المفهوم من الكلمة:

هو الحوار الذي يهدف إلى تحسين مستوى العلاقة بين شعوب أو طوائف، وربما تكون أقليات دينيّة، ويُعنى بالقضايا المجتمعيّة كالإنماء، والاقتصاد، والسلام، وأوضاع المهجّرين، واللاجئين ونحو ذلك، وقد يسمي البعض هذا النوع (التسامح).

وهذا المفهوم العام لا يزيد على حسن المعاملة، والعيش بصورة ملائمة بين كافة المجتمعات مع الاختلاف الديني والفكري والثقافي، والتعايش بهذا المعنى بين اتباع الأديان المختلفة لا يرفضه الإسلام، ويدل عليه معنى البر والإحسان والقسط الوارد في مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة8]. ولهذا المفهوم ثلاثة ضوابط:

أولا: مراعاة الولاء والبراء: فلا تلازم بين الإحسان والعيش الكريم والتسامح في المعاملة وبين الموالاة للكفار أو ترك البراءة منهم، فالولاء والبراءة أصل شرعي دلت عليه نصوص شرعية كثيرة(12).

ثانيا: إقامة العدل و الإنصاف مع كل الناس، فالعدل أساس عظيم في نماء المجتمعات واستقرارها.

ثالثا: التزام الحكمة في المعاملة: وهي وضع الأمر في موضعه ومقامه الصحيح الموافق للمنهج الرباني، ولطبيعة النفس الإنسانية.

ب - المعنى المعاصر ذو الشعار الخاص المعنى المعاصر له شعار خاص يستعمله العالم الغربي لأهداف سياسية، ثم تطور هذا المعنى إلى أن أصبح فكرا منظما، تقوم على تصديره بعض المؤسسات.

فخصائص (حوار التعايش) بالمفهوم الأول المميز له عن غيره هو:

1 -أنه حوار لا علاقة له بالدين.

2 -أنه يقتصر على الحوار فيما يتعلق بالمعيشة المبحتة بين أهل الأديان التي تفرضها طبيعة الحياة البشرية وحاجاتها الفطرية.

3 -أنه لا يتضمن محبة أو ولاءً، أو اعترافا بصحة دين الآخر أو تزكية له أو مدحا، بل هو قاصر على الأمور الدنيويّة وفي حدود الحاجة.

4 -أن لا يتضمن شيئاً من التنازل عن أمر من أمور الدين، بحجة الترغيب لهم في الدخول في الإسلام، أو إعطاء صورة حسنة عن الإسلام، أو بأي تعليل آخر.

حكمه : هذا النوع من الحوار - إذا لم يصاحبه ما يعكر على خصائصه السابقة أو يزيد فيها - فهو جائز لا إشكال فيه، وهو خاضع للسياسة الشرعية العملية التي يقدرها أهل الحل والعقد من أهل الخبرة والعلم والدين، وقد تفاوض رسول الله مع اليهود وعاهدهم، وصالح المشركين في الحديبية، وكذلك الصحابة الكرام تفاوضوا مع أهل الأديان المختلفة فيما يخص دنياهم ومعاشهم، ولا يزال هذا الأمر موضع اتفاق، وقد «زخر الفقه الإسلامي المؤسس على الكتاب والسنة بتراث ضخم في مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين»(13).

خصائص التعايش بالمفهوم المعاصر(14): لقد أعطى مصطلح (التعايش) بعداً آخر غير ما مضى من التوصيف، وأخذ مفهوم التعايش بعدا فكريا جديدا وهو بهذا المعنى يندرج تحت التقارب بين الأديان.

ويمكن تلخيص خصائصه في النقاط التالية :

1 -القول بحرية التدين وإنكار حد الردة في الإسلام، باعتباره معارضا لحرية اختيار الإنسان للدين الذي يقتنع به، وجعل القاسم المشترك بين كل الأديان البيان العالمي لحقوق الإنسان.

2 -منع كل ألوان الاعتداء على الآخر وإنكار الحرب باسم الدين، وتفسير الجهاد في الإسلام بأنه للدفاع عن النفس وإنكار جهاد الطلب.

3 -منع الكراهة الدينية و الدعوة للإخاء الإنساني.

4 -المطالبة بالحرية الدينية للأقليات غير المسلمة في البلاد الإسلامية، والتعامل معهم على أساس الوحدة الوطنية، وليس على أساس المعتقد الديني، واقتراح الغرب الحل العلماني كأفضل حل لمشكلة الأقليات، وإن كان هذا لا يراه كل من يرى الحوار بهذا المفهوم.

5 -الإقرار بالأديان السماوية جميعاً وتفسير قيمة الإسلام عليها بأنه (مراقب) عليها فهو يرصد ما تتعرض له الديانات من انحراف عن الحق.

■ لا ينبغي لنا أن ننفي الفكرة لمجرد أنها جاءت من الغرب بل يجب علينا أن نولي لها عنايتنا

■ إذا تتبعنا الآيات والأحاديث المبينة لحوارات الأنبياء والرسل مع أقوامهم نجد أنها دعوة إلى الله وبيان للحق وكشف للباطل

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»

«وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً»

لقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس كافة على اختلاف عصورهم وثقافاتهم ومداركهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]، وأيده ببينات متنوعة تتناسب مع جميع من أرسل إليهم إلى يوم القيامة.

ولقد أشار القرآن إلى هذا في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

وقد جعل الله العلم الإلهي الذي تحمله آيات القرآن هو البينة الشاهدة على كون هذا القرآن من عند الله كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 166]، أي: أنزله وفيه علمه.

ففي هذه الآية بيان لطبيعة المعجزة العلمية، التي نزلت ردا على إنكار الكافرين، لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم التي تبقى بين يدي الناس، وتتجدد مع كل فتح بشري في آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعاني الوحي الإلهي، وكل آية من كتاب الله تحمل علما إلهيا يعرفه البشر عند ارتقائهم باسباب العلوم والمعارف في ذلك الميدان الذي تتحدث عنه الآية القرآنية.

والقرآن ملئ بالآيات التي تتحدث عن مظاهر الكون، وحديثه عن الكون هو حديث من يعلم أسراره ودقائقه، مع أن البشرية كلها في وقت النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن تعلم معظم تلك الأسرار، وكان يغلب على تفكيرها الأسطورة والخرافة.

لذلك رأينا الجراح الفرنسي العالمي الشهير الدكتور: موريس بوكاي يتقدم إلى البشرية بأطروحة قال فيها: لقد قامت الأدلة على أن القرآن الذي نقراه اليوم، هو نفس القرآن الذي قراه النبي محمد صلى الله عليه وسلم على الصحابة، وما دام أن القرآن قد أفاض في الحديث عن الكون وأسراره، فإننا نستطيع بهذه الحقيقة أن نعرف منها إذا كان القرآن من عند الله باختبار يعرفه كل عاقل في عصرنا.

فإذا كان القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم، وهو مملوء بالوصف لمظاهر الكون: الأرض، السماء، الجبال، البحار، الأنهار، الشمس، القمر، النبات، الحيوان، الإنسان، الرياح، الأمطار.. وغير ذلك، فإن حديثه عن هذه المظاهر الكونية سيعكس لنا علم محمد صلى الله عليه وسلم وثقافته عن المخلوقات وأسرارها، كما يعكس لنا علم مجتمعه وبيئته، وعلوم عصره في ذلك المجال، وهي علوم غلبت عليها السذاجة والخرافة والأسطورة، وسنجد القرآن عندئذ مملوءا بالخرافة والأسطورة والخبر الساذج عند حديثه عن الكون وأسراره (إذا كان بشرا عاديا لا يوحى إليه من ربه)، كما هو شأن كل الكتب التي دونت في تلك الأزمنة بما فيها الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى (التوراة والإنجيل) التي طرأ عليها التحريف، هذا إذا كان القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم.

أما إذا كان القرآن من عند الله فسنراه في حديثه عن المخلوقات وأسرارها يسبق مقررات العلوم الحديثة، وسنرى الاكتشافات العلمية تلهث وراءه فتقرر ما فيه من حقائق وتؤكد ما فيه من مقررات في شتى المجالات، ولقد قضى الدكتور موريس بوكاي لتحقيق هذا الاختبار عشر سنوات يتعلم فيها القرآن واللغة العربية، ويقارن بين القرآن وبين الكشوف العلمية الحديثة، ثم ألف كتابا سماه: «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة».

وقد أثبت فيه سلامة القرآن من التحريف، ودخول التحريف على التوراة والإنجيل وأثبت تعارض التوراة والإنجيل مع العلوم الحديثة: كما أثبت سبق القرآن لهذه العلوم وبين أن هذا مما اشتمل عليه وعد الله القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]، (1).

الجبال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: 27]

الجبل مُحركة: كُلّ وَتد للأرض عظم وطال فإن انفرد فأكمَة(2)، والجبال من الأشياء العظيمة التي تبهر الناظر إليها، ولا عجب أن تحدق الأبصار نحوها ولو لعدة ساعات لما أودع الله فيها من العجائب والغرائب وما وهبها الله من الجمال الرباني الذي لا تصنعه يد المخلوقين ولا تصاميم المهندسين، وهي من الأسباب الرئيسية لإمداد الأنهار بالمياه العذبة وهي للرياضيين أفضل مكان للتسلق والتزلج والتنقل، وهي للقراء ماوى وبيوت، وهي مصدر عظيم لأنواع شتى من المعادن كالماس والكبريت وغيرها.

ولكن لماذا الإعجاز في الجبال وهي من الحجارة والتراب؟ هل لأنها عظيمة الخلق؟

أم لأنها زاهية الألوان؟ أم لأنها ذكرت في القرآن فلابد أن نوجد لها إعجازا؟!

أم أن القرآن هو أول من لا حظ الجبال على سطح الأرض؟

لا عجب إذن أن نتساءل ما وجه الإعجاز في الجبال؟ قبل أن نشرع في موضوعنا هذا سأذكر بعض الآيات التي ورد فيها ذكر الجبال وسمة كل آية وما توحي إليه تلك الآيات وأقوال المفسرين لها ومن ثم بعض مزايا الجبال وخصائصها من الناحية الجيولوجية، عندها ساعتئذ نستطيع الإشارة إلى وجه الإعجاز في هذه الجبال.

آيات ورد فيها ذكر الجبال:

ورد لفظ الجبال في القرآن ثلاثين مرة من غير تكرار إلا أن تلك المواضع لم تكن كلها تتحدث عن الجبال بعينها، فتارة يكون ذكر الجبال في معرض الامتنان على العباد في جعلها ماوى وبيوتا للناس، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74]، ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: 82]، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: 149]، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: 81]

وتارة للتمثيل فيشبه عظمة قدرته سبحانه في إحالة أمواج البحار بسبب تسخير الرياح عليها إلى أمواج كالجبال الشاهقة: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: 42]، وتارة يذكرها قيمن يسجد لله ويخشع من خلقه إجلالا له وتعظيما لذاته القدسية العلية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: 18].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 79]، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18].

ألا أن الحظ الأوفر من تلك الآيات كانت تصب في وصف يوم القيامة وما فيه من الأهوال حتى إن أعظم ما خلق الله فيما نرى وهي الجبال تكون كالعهن أي كالصوف المنفوش فتصير هباءً منبثا وتنسف نسفا ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: 105].

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: 5].

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: 14].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: 14]، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: 10].

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: 20]. وضمن كل تلك الآيات وردت آيات فيها ألفاظ مصاحبة للجبال تعبر عن معاني جديدة هي التي سنتناولها في هذا البحث إن شاء الله تعالى، وهي كما يلي:

الأولى: قوله تعالى ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7] نرى أن الله تعالى أطلق على الجبال صفة الأوتاد، يقول ابن كثير: أي جعلها لها أوتادا أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها(3)، وكذا قال القرطبي: لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها(4).

طرائف من حياة السلف الصالح

كان الشعبي من العلماء الكبار، لكن كان مزاحاً- فمما جاء عن الشعبي أنه سئل عن المسح على اللحية؟ فقال: خللها بالأصابع، قال: أخاف ألا تبلها - وهذا من التنطع المذموم شرعاً - فقال له الشعبي: إن خفت، فانقعها من أول الليل!!

وجاء رجل إلى أبي حنيفة ، فقال له: إذا نزعت ثيابي ودخلت النهر اغتسل فإلى القبلة أتوجه أم إلى غيرها؟ فقال له: الأفضل أن يكون وجهك إلى جهة ثيابك لئلا تسرق!

صلى أعرابي خلف إمام فقراء الإمام (ألم نهلك الأولين) و كان في الصف الأول فتأخر إلى الصف الآخر ، فقرأ (ثم نتبعهم الآخرين) فتأخر ، فقرأ: (كذلك نفعل بالمجرمين) و كان اسم البدوي مجرما، فترك الصلاة و خرج هاربا و هو يقول : ما المطلوب غيري ، فوجده بعض الأعراب ، فقال له : مالك يا مجرم ؟ فقال : إن الإمام أهلك الأولين و الآخرين و أراد أن يهلكني في الجملة